

استفهامية حفلة التيس

◆ عبدالكريم يحيى الزيباري

" السُّلْطَةُ مَفْسَدَةٌ، وَالسُّلْطَةُ الْمُطْلَقَةُ مَفْسَدَةٌ مُطْلَقَةٌ "

- ميشيل فوكو -

لأنّ هذا الكتاب سيحدّر الأجيال القادمة من السلطة المطلقة أتمنى اعتماده كمنهج دراسي لطلبة المرحلة الأولى لأقسام جامعات دول العالم الثالث كافة، ليعلموا أنّ الدكتاتورية تُفقدُ المواطن إنسانيته، وشجاعته، وكرامته وشرفه، فيتحوّل إلى مَسْخِ جبانٍ يَرجفُ من صفير الصافر، ومقابل هذا الجبن يصير في بيته أسداً، يضرب زوجته وأطفاله وأهله حتى الموت ليتخلّص من القهر والكتب، قال الشاعر عمران بن حطان:

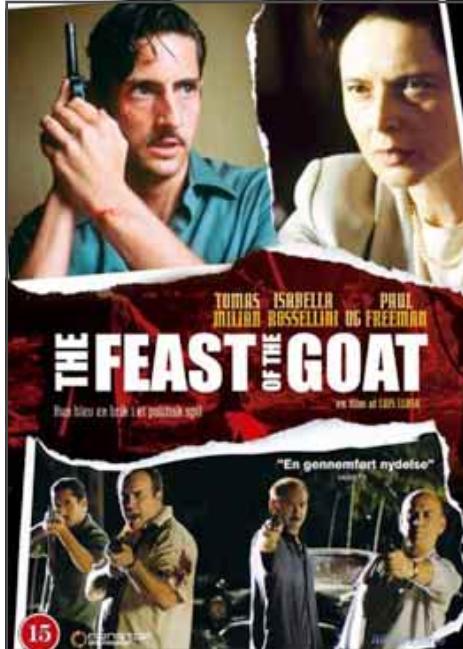
أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامةٌ ربداءُ ترجفُ من صفير الصافر (الأغاني/ج5/ص24).

الفرعون حين أذلّ يهود مصر، فقدوا إنسانيتهم، فحكم الله عليهم بالتيه أربعين سنة، وهي كافية لاستبدالهم بجيل جديد، الدكتاتور وحش، ومواطنه حيوانٌ بلا مبادئ، يتمنى الاحتلال، يتمنى الموت، يتمنى

منازلهم، وكان العلقمي منهم فراسل هو لاكو وأطمعه في بغداد، وأشار على الخليفة بتسريح الجيش، وكان قادة الجيش منهم من صار لصاً ومنهم يتسول في المساجد، لانقطاع مرتباتهم، وهو ما حصل في سقوط بغداد الأخير، وكانت بغداد تحترق وأهلها يقتلون والخليفة المستعصم يبكي على جاريته عرفة التي قتلها سهم التتار وهي ترقص على أنغام الموسيقى بين يديه (أين كثير/ البداية والنهاية/ ج/ 13/ ص/ 200) هذا الفصل المسكوت عنه في التاريخ يكره علينا، والترف يزيل النجم، قال تعالى (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُوَى عَنْ فَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ-116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)هود.

وبينما يعاني شعب الدومنيكان الجوع والبطالة والفقر والجهل والمرض (يقيم الزعيم احتفالاتاً بكلفة 25-70 مليون دولار أي نصف الميزانية الوطنية عام 1956 جاذباً فرق الرقص من كل أنحاء العالم/ ص/ 111). والزعيم هنا لا يقتل بالتعذيب فقط، ولا بالرصاص فقط، بل بالقهر والعار والخوف كما فعل بجميع زمرة الاغتيال وبوالد أورانيا، لسبب أو بدون سبب. بالإضافة إلى التفتن في أساليب التعذيب فرئيس الاستخبارات جذب الانتباه إليه بقراءته لكتاب أساليب التعذيب الصينية، ورامفيس يطعم أحد المعتقلين وجبة دسمة بعد جوع لأشهر، ثم يخبره بأنه تناول لحماً مطبوخاً من جثة ابنه الصغير، ليموت في الليل بسكتة قلبية بعد الانهيار الذي أصابه. إن سبيل الحاكم في سياسة شعبه، واضح، ولا يجوز أبداً أن يخالطه غضب أو كبرياء، أو هوى أو شهوانية أو حتى إعجاب بالنفس، وهذا يقضي إبعاد المتملقين المنافقين الذين لا يعرفون إلا المدح الرخيص. سنتساءل لأن السؤال الصحيح يؤدي إلى الخيار الصحيح. ماذا لو أن كل عراقي قرأ رواية "حفلة التيس" الصادرة عام 2000؛ هل سيعتقد للوهلة الأولى أن الروائي الأستاذ الجامعي الدكتور ماريو

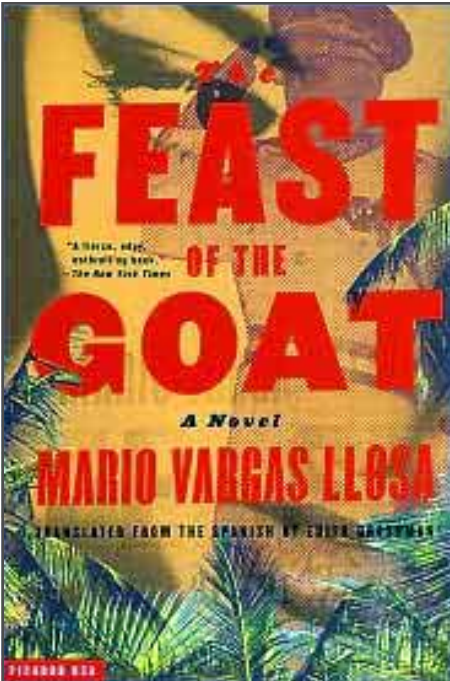
الجحيم من أجل الخلاص، الخلاصُ فحَسْبُ، وحين يأتيه الخلاص، قد لا يتوانى عن قول ممرضة والد أورانيا (حسناً قد يكون دكتاتوراً وكلُّ ما يقولونه عنه، ولكن يبدو أن الحياة كانت أفضل آنذاك. الجميع كان لديهم عمل. ولم تكن تُفتَرَف كل هذه الجرائم) ماريو بارغاس يوسا- حفلة التيس- ترجمة صالح علماني-2000- دار المدى- دمشق- ص108. (لكن جوني آيبس غارسيا تدبر الأمر لكي تصل المحروقات من هايتي، باجتياز الحدود تهريباً. لقد كانت زيادة السعر باهظة، ولكن المستهلك لا يدفعها، فالنظام يتحمل هذه الفروقات/ ص130) قد يسمى الشعب هذا العمل ماثرةً أسطورية، قبل أن يتساءل، لماذا ارتفعت أسعار المحروقات؟ لماذا فرضوا الحصار الاقتصادي الصارم على الدومنيكان؟ ولماذا جميع الشركات والمعامل والمزارع والبنوك ملك شخصي للزعيم وعائلته؟ لماذا انهارت الخلافة العباسية ومن قبلها الأموية ومن بعدهما العثمانية؟ زالت كلها بالتدبير والظلم والبغي والاستبداد فالاستعصم قبل سقوط بغداد الأول أمر جانب الرصافة بنهب جانب الكرخ وقتلهم وأحرق



لقتل شقيق الفتاة التي أحبها، بعد أن أجبره الزعيم على التخلي عنها لأنهم كان من حماية الزعيم وجميع ضباط الجيش لا يُسمح لهم بالزواج إلا بموافقة رسمية من الجهات المختصة في وزارة الدفاع خوفاً من تجنيده من مخابرات دول معادية أو اقترانه بعائلة مشكوك بولائها للزعيم، وهذا حاصل في معظم الدول.

النص الروائي هذا ليس وثيقة تاريخية، بل خيال روائي مزيج بالتاريخ، ويوسا أستاذ أكاديمي وخبير في السياسة يعلم كل شيء وينوّه بنفوذ الزعيم في الكاريبي حيث كان طفل أمريكا المدلل، ولكن انقلبت الموازين بعد انكشاف محاولته اغتيال بيتانكورت رئيس فنزويلا) فرضت عقوبات اقتصادية عليه من قبل منظمة الدول الأمريكية عام 1950.

عنوان الرواية تناص مع أغنية شعبية دومينيكية، يتالف النص من ثلاثة أقسام متشابهة بنظام شبه عشوائي في 24 فصل (أورانيا والزعيم والزمرة منفذة الاغتيال) والانتظار هو الوظيفة الرئيسية للنص، فأورانيا انتظرت 35



بارغاس يوسا هو عراقي بالأصل لأنه يتحدث عنا، أم أنه سيتوصل إلى حقيقة أن جميع الديكتاتوريات في العالم أوجه لعملية واحدة؟ الروائي يوسا أثبت أن كل عضو في حكومة ديكتاتورية هو قواد للديكتاتور، لا يتوانى عن تقديم ابنته ذات الأربعة عشر ربيعاً أو زوجته أو أخته قرباناً للديكتاتور كي يلهو بها، وإما قد يفقد حياته وأمواله وتصير ابنته إلى هاوية بنات الليل، وعندما يقيم الديكتاتور حفلاً عائلياً لأعضاء حكومته الذين سيفرحون بالدعوة التي ستصلهم بينما حرم منها آخرون، وهم يعلمون يقين العلم، أن الحفلة في الأساس للتمسك بالديكتاتور كي يختار من بناتهم وزوجاتهم أهداناً يلهو ويلعب بهن ومن ثم التفاخر بفحولته أمام الجميع وبحضور ذوي العلاقة رغم عجزه الجنسي وإصابته بالبروسنات وعمره الذي جاوز السبعين. ووراء كل فرعون هامان، بمدحه، ويقدم له القرابين من الشعب، لكن لماذا وصل أعوان الديكتاتور إلى هذا الذل الهوان؟ اليسوا هم الذين قالوا له أنت إله، أنت وكيله الشرعي لأنه اختارك لحكمة لا يعلمها إلا هو، وما دام هو قد اختارك، فلا يتصور العقل أنك قد تخطئي، وبهذا فأنت معصوم، ولو شبّه لأحد المخدوعين بأنك قد أخطأت فإنه لا يرى الحكمة والفائدة الجليلة المنصوية تحت عملك الذي يعتقد بخطئه.

استفهامية السارد

الذاكرة الفردية مركز هام في أجزاء الرواية، ويوم مقتل الزعيم ليس نقطة تقاطع الذاكرة الجمعية لشخصيات الرواية، بل فلسفة الفساد: الفساد السياسي، انعدام معاني الرجولة عند الشعب، فساد الذاكرة، فساد الكتابة والشعر والأدب. الأحرار لا يختلفون كثيراً عن السجناء بل ربما أكثر قلقاً كما حدث لرومان الذي لم ينم حتى انهار واعترف، والصحف والمجلات الأجنبية ممنوعة إلا ما يتسرب مع المضيفات، التفاصيل العامة للاستبداد وللاغتيال صحيحة، وبعض الأحداث قتل الأخوات ميربال، وغيرها من التفاصيل اخترعها فارغاس كاضطرار أماديتو

أسبوعين سَبَقًا اغتيال الزعيم، عن طريق تيار الوعي، فيصير للرواية زمناً مزدوجاً: (الزمن المُرَوِّي بتيار الوعي "أسبوعين" + الزمن المُرَوِّي بضمير الغائب أسبوع واحد إجازة أورانيا) الطفلة ذات الأربعة عشر ربيعاً التي قدمها والدها قرباناً كي يلهو بها الجنراليسوم (تروخيو الزعيم/ المنعم/ صاحب الفخامة/ التيس) ويرفع عنه غضبه الذي لم يعرف له سبباً. والدها السيناتور أوغسطين كابرال الملقب بالمخيخ، رئيس مجلس الشيوخ السوري، الذي خَدَمَ الزعيم ثلاثين سنة بإخلاص تام، بدأت عام 1931، مسخراً له كل وقته، متخلياً عن مباحج الحياة، جمد أرصدته وطرده كالكلب، ثم اغتصب ابنته، دونما أي سبب، إلا من أجل ما يسمونه "اختبار المحنة" ليفحص مدى ولاءه للزعيم وعين عليه حرسين يراقبانه كظله كي يطلقوا عليه الرصاص إذا اقترب من إحدى السفارات الأجنبية طلباً للجوء، تحصل الطفلة على بعثة هيأتها لها الكنيسة وعلى نفقتها، لأنها بعد الحادث المأساوي ذهبت إلى الكنيسة ولم تر والدها ولم تكلمه لمدة 35 عاماً قررت بعدها العودة في عام 1996، لتتخلص من عقدها النفسية حيث لم تتزوج ولم تسمح لرجل بأن يلمسها، وحتى بعد أن روت كل شيء ردت بعنف دعوة أحدهم إلى شراب، في الصفحة الأخيرة ص 439. وتستغرق أورانيا سبعة فصول (فص 1-4 فص 7-10 فص 13-16 فص 24) في تيار وعي، وتانيب لوالدها المشلول وهي المثقفة خريجة جامعة هارفرد وموظفة البنك الدولي، وذكريات عن طفولتها مع توبيخ والدها فاقد النطق المشلول شللاً تاماً (لقد كنت أحب أن توضح لي على سبيل المثال، إذا ما كان فخامته قد ضاع أي أيضاً/ص 56). وتظل تلف وتدور حول نفسها حتى يأتي العشاء في منزل العممة لتروي كيف قدمها والدها قرباناً، بعد أن ألح عليها الجميع في السؤال: لماذا لم تردي على رسائل والدك ورسائلنا ولو مرة واحدة، وتروي هذه الحكاية في الفصلين (16-24) لزيادة التشويق عن أحداث حفلات التيس.

2- الزعيم جنراليسوم، في الأسبوعين

سنة، ووالدها ينتظر رضا الزعيم والزعيم ينتظر غزواً أمريكياً أو محاولة لاغتياله، والجميع ينتظر نظرات الزعيم وزاوية المحكمة العامة ليعلمون من سيأتي عليه الدور في اختبار المحنة، والانتظار الأجل فنيا وسرديا من حيث تيار الوعي في كشف الحقائق ذات العلاقة وتعريية التاريخ، انتظار الزمرة التي ستنفذ الاغتيال على مدى عشرة فصول، وإلقاء القبض عليهم جميعاً عدا اثنين وتعذيبهم تعديبا وحشيا من رامفيس المدمن ابن الزعيم، منح الروائي يوسا الجميع صفة الرواة، فكل من حضر قتل الزعيم له رواية، وكل رواية تساهم في إضاءة الحدث، ولكن الرواية لا تدور كلها حول حدث واحد (الاغتيال) كما في قصة يوم معلن، بل يرون تاريخاً للاستبداد لا يختلف كثيرا عن دول العالم الثالث:

1- أورانيا: شخصية تحتل ثلث الرواية وتبدأ الرواية وتنتهي بتيار وعيها، وزمن السرد يتحد بالإجازة التي تقضيها في بلدتها وتعود في نهاية الأسبوع، وفي مقابلة هذا الأسبوع هناك



الشيء الوحيد الذي يفخر به الزعيم، ولا يفتأ يكرر وفاءه لمبادئ المارينز الأمريكي (مشاة البحرية) الذي علمه القسوة والانضباط والاستيقاظ في الساعة الرابعة صباحاً، ولو اضطره ذلك للنوم ساعة واحدة. ابنه رامفيس الذي التحق بالأكاديمية العسكرية الأمريكية، نبهته وزارة الخارجية عن طريق سفيرها بوجود انسحاب ابنه من الأكاديمية لأنه سيفشل حتماً، ويذعن لنصيحة السفير الأمريكي لكنه يطرده ويقطع العلاقة مع راعيته أمريكا، ويقدم لابنه احتفالاً أسطورياً بعودته، ويمنحه رتبة جنرال، وكان قد منحه رتبة كولونيل وهو في السابعة من عمره، وكان سبب طرد ابنه، أن صحفياً كتب مقالاً عن حفلات المجون التي يقيمها ابنه مع فانتات هوليفود، الحفلة الواحدة بكلفة مساعدات أمريكا السنوية لجمهورية الدومنيكان، وكتب بأن دافع الضرائب الأمريكي يدفع كي يلهو ويستمتع رامفيس في حفلاته الماجنة، مما اضطر أمريكا إلى قطع المساعدات، (ابتداءً من منتصف الليل تبدأ قوات الجيش والشرطة بإبادة لكل شخص من الجنسية الهايتية يتواجد بصورة غير شرعية على الأراضي الدومنيكانية/ص186) فقتل عشرين ألفاً فروا من الجوع والحرب الأهلية في هاييتي، ثم دفع تعويضاً للحكومة الهايتية 275000 بيزو، وساله صديقه الأمريكي سيمون (-كيف كان شعورك عندما أصدرت أمراً بإبادة آلاف الهايتيين غير الشرعيين؟ - عليك أن تسأل رئيسك السابق ترومان عن شعوره عندما أصدر الأمر بإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي، وهكذا ستعرف شعوري في تلك الليلة في داخـابون/ص190) . - فص14 مع الرئيس (الدمية) د. بالغير الشخص الذي لا يخافه الزعيم لأنه بلا طموح، بينما كان هو أكثرهم طموحاً، يكتشفه الزعيم، بعد أن يكتب خطاباً بعنوان (الرب وتروخيو: تفسير واقعي) - لقد أعدت قراءة ذلك الخطاب مرات عديدة - رن صوت المنعم - وأنا أحفظ منه مقاطع عن ظهر قلب، مثل الشعر... لقد هزّه (الزعيم) الخطاب من الأعماق.. إذا ما كان يعبر عن حقيقة عميقة، عن

الذين سبقا مقتله، بدءاً من 16 أيار 1961 في ستة فصول تشرح الدوائر الداخلية والخارجية للنظام (فص2: استيقظ من النوم وتفاصيل حياته اليومية واستحمامه وبذخه وملابسه الداخلية وما شبه ذلك من بذخ - فص 5 يستقبل العقيد جوني أبيس غارسيا رئيس الاستخبارات، وهو عبارة عن مسخ بشري يستمتع بالتعذيب، ويراقب شعب الدومنيكان جميعهم ثلاثة ملايين بدءاً بالوزراء والمسؤولين، وفأوه الكلب لا يخفى كما دناعته وحقارته، ولولا أنني قد علمت علم اليقين لأنكرت وجود إنسان بهذه الدناءة، والزعيم يحسد هذا الدنيء على زوجته المسخ القبيحة التي لا تسير بدون مسدس وتمارس القتل كهواية، ورغم كل جرائمه يحلم بمدينة فاضلة وشعب مثالي يتفنن في عبادة الزعيم (وهو يتمنى لو كانت لديه امرأة مثل تلك الفزاعة. يا لعنة! ما كان سيشعر أحياناً بأنه وحيد جداً. ليس هناك ما يقيد المرء مثل الدم، هذا صحيح أيكون هذا هو سبب إحساسه بالارتباط ببلاد الجاحدين والجبناة والخونة هذه، فلكي يخرجها من التخلف، من الفوضى، من الجهل والبربرية، اضطر إلى أن يلطخ نفسه بالدم مرات كثيرة. هل سيشره في المستقبل هؤلاء الأوغاد، ومرة أخرى هوى عليه القنوط/ص83). لماذا لأنه يعلم جيداً أن هناك في شعبه من لا يعبد، وليس ذلك فحسب، بل يحتقره أيضاً، وربما يخطط لقتله، ولا يمنعهم سوى الخوف، الذي يغذيه خوفه منهم وانعدام ثقته في جميع من حوله، الذين يخشى أن يبوخ لهم بعجزه وسلس البول الذي يعانیه، لأن البوخ سيؤدي إلى اهتراز صورة الإنسان الخارق. فص8 يستقبل السيناتور تشيرينوس الشاعر (القدارة الحية) (الدستوري سكران) هكذا يسمونه حتى الزعيم الذي يكتب مقالات عمود زاوية (المحكمة العامة) في جريدة الكاريبي لسان حال الزعيم، هذه الزاوية هي التي تقرر الإبعاد والتقريب السخط والرضا، وهذا سيكون ثاني رجل في الانقلاب الديمقراطي الذي سيحصل في البلاد - فص11 مع سيمون جيتلمان الأمريكي الذي كان مع الزعيم في بداية حياته حين تلقى التدريب في المارينز الأمريكي وهو

الأصلي "سانتو دومنغو دي غوثمان". -فص18: مع الفونسو مانويل قواد الزعيم الذي يجلب له فتيات عذراوات ليلهو بهم ويفسدهم ويعذبهم ثم يبكي بسبب عجزه الجنسي، وينتهي هذا الفصل بقتل الزعيم (واستردار البحث عن المسدس الموضوع على المقعد، ولكنه لم يتوصل إلى تناوله، إذ سمع دوي بندقية طيرت طقاتها زجاج النافذة وانتزعت قطعة من كتفه وذراعه الأيسر/ص329). ليس هناك أي تلاعب فني بالزمن المرؤي، ولكن هناك تعدد رواة تقليدي بدأه وليم فوكنز وقلده الجميع من بعده وأبدع فيه ماركيز في "قصة موت معلن" ونجيب محفوظ في "ميرامار" و"أفراح القبة" و"يوم مقتل الزعيم" - فص + 18 فص22 يكون الزعيم قد رحل ويحل محله الرئيس الدمية بالاغير وبلعبة دبلوماسية يسيطر على البلاد ويطرده آل تروخيو من البلاد ويسمي الإنقلابيين أبطالاً بعد أن كانوا مجرمين: مرونة + سيطرة + قوة.

3- تيار وعي زمرة الاغتيال وهم ينتظرون الزعيم ليقتلوه: فص3- فص6- فص9- فص12 يأتي الزعيم يطلقون عليه النار/ص212- فص15 المجموعة الأولى التي يصاب فيهم بيدرو من قبل التوركو(لقب ذوي الأصول العربية)ويلقى القبض عليه في المستشفى- فص19الجنرال رومان زوج ابنة أخت الزعيم الذي يتخاذه عن دوره لجنبه- فص20 تعذيب رومان وقتله ص362- فص21 الانقلابيون مطاردون: مطاردة-اختباء- إعدام- فص23 ينجو اثنان بمساعدة وزير الصحة الحالي وموظف السفارة الإيطالية. في عملية الاغتيال يطلق سلفادور(التوركو) العربي الأصل النار خطأ على زميله الزنجي بيدرو لفيغو ليكون أول من يطلق عليه القبض، وهذا الأخير عانى في أمريكا التعصب العنصري ضده في الأكاديمية العسكرية حيث كانوا ينادونه بالزنجي انتقاصاً منه(nigger)وبين زملائه زمرة تنفيذ الاغتيال عانى العنصرية أيضاً حيث لا يفتأ أحدهم يناديه بالزنجي، فيهدده بالضرب واللكم كما كان يفعل في أمريكا.

إحدى تلك الأحكام الإلهية عميقة الغور..كان الخطاب أشبه بتلخيص لتاريخ الدومنيكان..وقد بقيت الدومنيكان على قيد الحياة بفضل العناية الإلهية. وكانت مهمة بقاء البلاد موكلةً آنذاك إلى الخالق مباشرةً. وابتداءً من عام 1930 حلّ رافائيل ليونيداس تروخيو المنعم محلّ الرب في هذه المهمة الشاقة/ص248). بالاغير، دمية الزعيم تبدو غير مؤذية بادئ الأمر، وبعد قتل الزعيم، يحدث انقلاب حقيقي في شخصيته، مثيراً دهشة الجميع في مهارته وهمته للحصول على السلطة، (لم يكن بالاغير أول مَنْ نَسَبَ الإلهية إلى أعمال "الزعيم" تروخيو، فالمنعم يتذكر بروفسور القانون المحامي والسياسي دون خايننتو بينادو علّق على باب بيته إعلاناً ضوئياً كبيراً يقول: "الله وتروخيو". قال "الزعيم" معترفاً- هل كان قراراً إلهياً؟ ولماذا أنا بالذات لماذا اختياري أنا؟- أحكام الذات الإلهية حتمية لا مفرّ منها ولا بدّ أنّها أخذت بعين الاعتبار الشروط القيادية الاستثنائية لسيدتك وقدرتك على العمل وقبل كل ذلك حبك للبلاد/ص249) هناك قولٌ ماثور "طعم المجاملة جميل، لكن عليك ألاّ تبتلعها" وقد ابتلع الطعم وشكك بتألوهيته كبدية، ثم صدّق بها وأمن، ثم تعصّب لها، ثم بدأ يرى كل مَنْ لا يؤمن بها خائناً ناكراً للجميل يستحقّ القتل. وهي شعارات ليست بالجديدة فشعار "الله القائد الشعب" لا يزال محفوراً في ذاكرة الشعب. وبهذا تكون أمام نقطة حساسة وهي كيفية تحوّل الزعيم إلى سياسة الفرعون الإله، كما أخبرنا الله(قال فرعونُ ما أريكُم إلاّ ما أرى وما أهديكُم إلاّ سبيلَ الرُّشاد-29-غافر). هذا الشخص الوضيع هو الذي سينجح من تخليص الدومنيكان من الدكتاتورية بدون احتلال أمريكي ولكن لولا دعم القائم بأعمالهم والسفن الحربية التي أرسلها كنيدي ورأها بيتان شقيق تروخيو لكان بالاغير قد قتل وعادت الحرب الأهلية، وأعاد الأسماء الحقيقية للشوارع والمدن بعد أن كانت كلها تحمل أسماء تروخيو الزعيم ووالدته وعائلته، ويبدأ بإعادة اسم العاصمة من تروخيو إلى اسمها